﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠﴾ [النّمل: 89 - 90]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الانتقال من الإجمال إلى البيان والتّفصيل

لمّا ذَكَر تعالى في الآيات السّابقة علاماتِ السّاعةِ، وذَكَر منها قولَه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النّمل: 87]، فعمَّ بذلك الجميعَ، ثمّ استثنى منهم من أن يَفزع مَن وقع تحت مشيئته ﷻ؛ ناسبَ هنا أن يذكر المُستَثْنَين منَ الفَزَع، وهم الذين جاؤوا بالحسنة، ويبيّن آثارَ الفَزَع في أصحاب السّيّئات من دخول النّار بسبب أعمالهم. فهو انتقالٌ منَ الإجمال إلى البيان والتّفصيل.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَزَعٍ﴾: (فزع) أصلٌ يدلُّ على الذُّعر[1]، وهو انقباضٌ ونفارٌ يعتري الإنسانَ مِنَ الشَّيءِ المُخيفِ[2]، والإفزاعُ: الإخافةُ[3]، وإزالةُ الخوفِ أيضًا، كما في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ [سبأ: 23][4]. والمرادُ بالفَزَعِ هنا: خوفُ يوم القيامةِ[5].

2) ﴿فَكُبَّتۡ﴾: (كبّ) أصل يدلُّ على جمعٍ وتجمُّعٍ[6]، ومِنْ ذلكَ: الكَبُّ، وهو إسقاطُ الشَّيءِ على وجهِهِ[7]، ككَبِّ الإناءِ[8]، والكَبْكَبَةُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فزع).
(2) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فزع).
(4) الرّاغب، المفردات: (فزع).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبب).
(7) الرّاغب، المفردات: (كبب).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (كبب).

تكريرُ الكَبِّ، قالَ تعالى: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشّعراء: 94][1]. ومعنى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: طُرِحَتْ وأُلقِيَتْ على الأرضِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المُحسِنُ في أمنٍ وحُبورٍ، والمُسيءُ في ويْلٍ وثُبورٍ

تُبيِّنُ الآيتان الكريمتان أحوالَ النّاسِ يومَ القيامةِ، وهم ما بين جاءٍ بالإيمانِ والعملِ الصّالحِ فلهُ عندَ اللهِ الثَّوابُ الجزيلُ، وهم الآمنون من فزعِ الأهوالِ والمخاوفِ الَّتي تكونُ في ذلكَ اليومِ العصيبِ، وما بين جاءٍ بالكفرِ والمعاصي، وهم أصحاب الفزع؛ فعاقبتُهُ أنَّهُ يُلقَى في النّارِ مُنكَّسًا على وجهِهِ بذُلٍّ واحتقارٍ؛ جزاءَ عملِهِ القبيحِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

النّاسُ يومَ الحَشْرِ آمنٌ ناجٍ، وفازعٌ هالكٌ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ ما في هذهِ الآيةِ والَّتي بعدَها جوابٌ لسؤالٍ نشأَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النّمل: 88]؛ كأنَّ سائلًا قالَ: ماذا يكونُ حالُ أهلِ الحَشْرِ عندَ الخبيرِ؟ فقيلَ: مِنْ إتقانِهِ للأشياءِ أنَّهُ رتَّبَ الجزاءَ أحسنَ ترتيبٍ، فقالَ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾[3]. أو أن يكون وقعَ جوابًا لقولِ مَنْ يسألُ: فماذا يكونُ بعدَ هذهِ القَوارعِ؟ فقيلَ: إنَّ اللهَ خبيرٌ بعملِ العاملينَ، فيُجازيهم على أعمالِهم، وفصَّلَ المجازاةَ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾[4]، وهذا على قول جمهور المفسِّرين بأنَّ الحديث عن أحوال الجبال يكون يوم القيامة.

أو أن يكون الاستئنافُ بَيانًا ناشئًا عَنْ قَوْلِهِ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (كبب).
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 245، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 53.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 225.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 595.

وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ [النّمل: 87]؛ لِأَنَّ الفَزَعَ مُقْتَضِ الحَشْرَ والحُضورَ لِلْحِسابِ؛ فَكانَ مِنَ التَّخَلُّصِ والعَوْدِ إلى ما يَحْصُلُ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصّورِ[1]، وهذا في جعل الحديث عن أحوال الجبال في الدُّنيا.

بلاغةُ استعمالِ اسم الشَّرط وفائدتُه:

الأمـــــان في القيامة مشروطٌ بـالإحـسـانِ في الدُّنيا

الظّاهرُ أنَّ ﴿مَن﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ شرطيَّةٌ[2]، فتفيدُ أنَّ المجيءَ بالحسنةِ شرطٌ وسببٌ لنيلِ الثَّوابِ والإكرامِ تفضُّلًا منهُ جلَّ شأنُهُ، والأمنِ مِنْ أهوالِ يومِ القيامةِ، وفي ذلكَ حثٌّ للعبادِ على الإيمانِ والعملِ الصّالحِ، والأخذِ بأسبابِ النَّجاةِ يومَ الدّينِ. ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿مَن﴾ موصولةً[3]، والموصولُ فيهِ رائحةُ الشَّرطِ.

سِرُّ اختيارِ المجيءِ دونَ الإتيانِ:

قيامُ الحُجَّةِ على الـخَـلْـقِ بإقامةِ موازينِ العدْلِ

الإتيانُ قد يقالُ باعتبارِ القصدِ وإنْ لم يكنْ منهُ الحصولُ، وأمّا المجيءُ فيقالُ اعتبارًا بالحصولِ[4]، فتكونُ دلالةُ ﴿جَآءَ﴾ على المجيءِ أقوى مِنْ دلالةِ (أتى)[5]، ويكونُ الإتيانُ أعمَّ مِنَ المجيءِ؛ لاحتمالِ استعمالِهِ باعتبارِ القَصْدِ وإنْ لم يكنْ حصولٌ، وقد عُبِّرَ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ وقولِهِ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بمقامِ الثَّوابِ والعقابِ؛ لأنَّ مجيءَ المُحسنِ بالحسنةِ ومجيءَ المُسيءِ بالسَّيِّئةِ حاصلانِ يقينًا، وليسا أمرينِ عُقِدَ عليهما العَزْمُ والقصدُ فحسب، وفي ذلكَ إقامةٌ للحُجَّةِ على الخَلْقِ، بإقامةِ موازينِ العَدْلِ، ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحدًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 51 - 52.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458.
(4) الرّاغب، المفردات: (جاء).
(5) زيدان، الفروق اللّغويّة في القرآن الكريم، ص: 50.

براعةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

الجزاء العادلُ يستبين بالأعمال الواقعة لا المتوقّعَة

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ وقولِهِ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ مجيءَ المُحسِنِ بالحسنةِ الَّتي هي سببُ نَيْلِهِ ما هو خيرٌ منها، ومجيءَ المُسيءِ بالسَّيِّئةِ الَّتي هي سببُ هلاكِهِ أمرانِ مُحقَّقان ثابتانِ يومَ القيامةِ، لا شكَّ فيهما ولا ارتيابَ، ولذلكَ أُخبِرَ عنهما كما يُخبَرُ عنِ الأمورِ الَّتي مضَتْ وانقضَتْ؛ لأنَّ المُخبِرَ بهما هو العظيمُ سبحانَهُ، الَّذي لا خُلْفَ في إخبارِهِ، وليس المقصودُ هنا الإخبار عن وقوع المجيء في المستقبل كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا﴾ [طه: 74]، بل بيانُ الجزاء، وهذا يتحقَّق بصيغة الماضي المُنبِئَة عنِ الوقوع الحتميّ.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

كلُّ امرئٍ مقرونٌ باعتقادِه، مجازًى بعملِه

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾، وقولِهِ: ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ للمصاحبةِ المجازيَّةِ، ومعناها: أنَّهُ ذو الحسنةِ أو ذو السَّيِّئَةِ، والمعنى: مَنْ جاءَ يومئذٍ وهو مِنْ أصحاب الاعتقاد الحسن وفاعلي الحسنةِ، ومَنْ جاءَ وهو مِنْ أصحاب الاعتقاد الباطل وأهلِ السَّيِّئَةِ، فالمجيءُ ناظرٌ إلى قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النّمل: 87][1]، ففيه تصويرٌ لحالِ المُحسِنِ وقد جاءَ يومَ القيامةِ مُلتبِسًا بالحسنةِ ومصحوبًا بها، كأنّما حملَ دليلَ النَّجاةِ والفلاحِ، ولحال المُسيءِ وقد جاءَ مُلتبِسًا بالسَّيِّئةِ ومصحوبًا بها، كأنَّما حملَ هلاكَهُ وحتفَه معَهُ.

نوعُ تعريفِ لفظِ الحسنةِ ودلالتُه:

الحسنةُ يدخلُ فيها الإيمانُ والعملُ الصّالح

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الحسنةِ في قولِهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ للجنسِ، وهي تشملُ الإيمانَ وغيرَهُ مِنَ الأعمالِ الصّالحاتِ[2]، بل يدخلُ فيها الإيمانُ دخولًا أوَّليًّا[3]، فيكونُ مقصودًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 246.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458.

قبلَ غيرِهِ؛ لأنَّهُ شرطُ قبولِ العملِ الصّالحِ. ولمّا كانتِ النَّجاةُ يومَ القيامةِ ليستْ مشروطةً بالمجيءِ بكلِّ الأعمالِ الصّالحاتِ فيُحمَلُ الجنسُ على أكملِ أفرادِهِ في المقامِ الخَطابيِّ، أي: مَنْ تمحَّضَتْ حالتُهُ للحسناتِ، أو كانَتْ غالبَ أحوالِهِ، كما يقتضيهِ قولُهُ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[1]. وجوِّزَ أنْ يُرادَ بالحسنةِ أكملُ الحسناتِ شأنًا، وأعلاها درجةً، وهو الإيمانُ؛ لأنَّ الحسنةَ هنا لفظةٌ مفردةٌ مُعرَّفةٌ، فيكفي في تحقُّقِها حصولُ فردٍ[2]، وهذا لا دليلَ عليه، إذِ الأصل أن يدخل في لفظ الحسنةِ ما هو حَسَنٌ في خطابِ الشَّرعِ، وهو الإيمانُ والعمل الصّالح، وتخصيصُ الحسنة بالإيمان دونَ العملِ الصّالح أو العكس لا دليلَ عليه، فيكون الجنسُ المرادُ جنسَ الحُسْنِ في خطاب الشّرعِ.

نُكْتَةُ إفرادِ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

رُبَّ إفرادٍ أوسعُ دلالةً من جمعٍ!.

أُفرِد ذِكْرُ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ دون أن يُقال: (الحسنات) و(السيئات) كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [هود: 114]؛ وذلك لأنَّ المقصودَ بالأصالة الإيمانُ والأعمالُ الصّالحة، فلو قال: (الحسنات) أو (السّيّئات)؛ لظُنَّ أنَّ المراد الأعمالُ وحدَها، فكان إفرادُ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ نصًّا في إدخال الإيمان والأعمال الصّالحة، كما أنَّ إفراد ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ نصًّا في إدخال الشّرك والأعمال الباطلة، وهو ما يُؤيِّد أنّ التّعريف للجنس.

وجهُ تأنيثِ ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ و﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

النَّقلُ مِنَ الوصفيَّةِ إلى الاسميَّةِ

الحسنةُ اسمٌ اعتُبِرَ مُؤنَّثًا لتأويلِهِ بالحالةِ والحادثةِ، وكذلكَ السَّيِّئةُ، فكلٌّ منهما في الأصلِ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، ثمَّ كَثُرَ حذفُ الموصوفِ لقلَّةِ جَدْوَى ذكرِهِ، فصارتِ الصِّفتانِ كالاسمينِ[3]، والتّاءُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 575.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 18.

فيهما للنَّقلِ مِنَ الوصفيَّةِ للاسميَّةِ، وهو ما يُؤيِّد القول بأنَّ تعريف الحسنة للجنس؛ فيدخل فيها كلُّ ما هو حسنٌ في خطابِ الشَّرع.

نوعُ الفاءِ وبيانُ فائدتها:

شرطُ تحقيقِ الجزاءِ الأحسنِ المجيءُ بالحسنةِ

الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ فاءُ الجوابِ، وهي رابطةٌ لجملةِ جوابِ الشَّرطِ بما قبلَها[1]، وفائدتُها تقويةُ السَّببيَّةِ بينَهما، وتأكيدُ ترتُّبِ خيريَّةِ الثَّوابِ على المجيءِ بالحسنةِ، وإنْ كانَتْ ﴿مَن﴾ موصولةً فالفاءُ لشَبَهِ الموصولِ بالشَّرطِ.

نوعُ اللّامِ وفائدتُها:

استحقاقُ المُحسِنِ للثَّوابِ بإرادةِ اللهِ تعالى وفضلِهِ

اللّامُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ للاستحقاقِ، وفائدتُها التَّنبيهُ على أنَّ فاعلَ الحسنةِ يستحقُّ بها الخيرَ المُعَدَّ لهُ بإزائِها عندَ اللهِ ﷻ[2]، وهو محضُ تفضُّلٍ ورحمةٍ مِنَ اللهِ تعالى، والإتيانُ باللّام لتقويةِ رغبةِ العبدِ في فعلِ الحسناتِ، بإظهارِ خيريَّةِ الثَّوابِ مِنَ اللهِ تعالى بصورةِ الأمرِ المُستحَقِّ.

نُكتةُ تقديمِ متعلَّقِ الخبر:

المحسنُ متطلِّعٌ إلى نيلِ الأجرِ، فتأخيرُ ذكرِه تشويقٌ وعناية

قُدِّم متعلّق الخبر (المسند) ﴿فَلَهُۥ﴾ على المسندِ إليهِ ﴿خَيۡرٞ﴾؛ للاهتمامِ به والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وذلكَ أنَّ تقديمَ ﴿فَلَهُۥ﴾ يفيدُ أنَّ الجائي بالحسنةِ يستحقُّ ثوابًا ما، وفي هذا تشويقٌ للسّامعِ لمعرفةِ الثَّوابِ، فإذا جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ تمكَّنَ في نفسِهِ غايةَ التَّمكُّنِ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّرغيبِ بفعلِ الحسناتِ، مع إفادةِ التَّخصيصِ، على معنى أنَّ الثَّوابَ الأفضلَ خاصٌّ بمَنْ جاءَ بالحسنةِ، لا يتجاوزُهُ إلى غيرِهِ.

صيغةُ ﴿خَيۡرٞ﴾ بينَ التَّفضيلِ والمبالغة:

يحتملُ لفظُ ﴿خَيۡرٞ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ أنْ يكونَ

(1) درويش، إعراب القرآن: 7/ 266.
(2) النّهانوي، بيانُ القرآن: 2/ 1509.

اسمَ تفضيلٍ، و(مِنْ) هي التَّفضيليَّةُ الدّاخلةُ على المُفضَّلِ عليهِ، ووجهُ الخيريَّةِ: مضاعفةُ الحسناتِ، وأنَّ العملَ يتقضَّى والثَّوابَ يدومُ[1]، وأنَّ الحسنةَ مِنْ فعلِ العبدِ، والجزاءَ عليها مِنْ عطاءِ اللّهِ، وفعلُ اللّهِ أشرفُ مِنْ فعلِ العبدِ[2]، وفي هذهِ الخيريَّةِ بيانٌ لسَعَةِ فضلِ اللّهِ تعالى وكرمِهِ، حيثُ يُجازي بالكثيرِ على القليلِ، وترغيبٌ للعبدِ في فعلِ الحسناتِ؛ إطماعًا بهذهِ الخيريَّةِ. ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿خَيْرٌ﴾ ليسَ للتَّفضيلِ، بل هو صفةٌ مُشبَّهةٌ[3].

احتمال الصّيغة لأكثر من معنى، دليلُ الاتّساع في الدّلالة وتكثير المعاني

نوعُ (من) ودلالتُها:

على القولِ بأنَّ ﴿خَيْرٌ﴾ اسمُ تفضيل؛ فإنَّ (من) تكون الدّاخلة على المفضَّلِ عليه، وعلى القول بأنَّ ﴿خَيْرٌ﴾ صفةٌ مشبَّهة؛ فإنَّ حرف (مِنْ) يحتملُ أن يكونَ لابتداءِ الغايةِ، وليسَتْ هي الدّاخلةَ على المُفضَّلِ عليهِ، أي: فلَهُ خيرٌ حاصلٌ مِنْ جهتِها، مَبْدؤُهُ ونَشْؤُهُ منها، وهذا الخيرُ هو الجنَّةُ[4]، ويحتملُ أنْ تكونَ (مِنْ) للسَّببيَّةِ، أي: هذا الخيرُ الَّذي يكونُ لهُ بسببِ حسنتِهِ[5]، وفي ذلكَ إيناسٌ للعبدِ وشدٌّ لعَضُدِهِ في فعلِ الخيرِ، ببيانِ ما يتسبَّبُ عن حسناتِهِ مِنَ الجزاءِ العظيمِ بفضلِ اللّهِ.

احتمالُ معاني الحروفِ عائدٌ إلى تعيين المراد من معاني الألفاظ

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الحقِّ تعالى شأنُهُ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الخيريَّةَ الَّتي يستحقُّها الجائي بالحسنةِ أمرٌ ثابتٌ مُستقرٌّ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، ولا تبديلَ لهُ؛ لأنَّ اللّهَ تعالى قد قضَى بهِ وحكمَ في الأزلِ، ولا مُبدِّلَ لكلماتِ اللّهِ، وفي ذلكَ تحريكٌ للعبدِ للإقبالِ على الطّاعاتِ.

طمأنينةُ القلوبِ مهمازُ العملِ ومُرتكزُ الأمل

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 274.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 273، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 624.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

فضلُ اللهِ يَلْحَقُ المحسنين بالثّوابِ المبين والأمن المكين

الواوُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، ونُكتةُ هذا العطفِ: بيانُ أنَّهُ قد رُتِّبَ على مجيءِ المُكلَّفِ بالحسنةِ شيئانِ؛ أحدُهما: أنَّهُ لهُ خيرٌ منها. والثّاني: الأمنُ مِنَ الفَزَعِ يومَ القيامةِ[1]، ولا رِبْحَ فوقَ رِبْحِ مَنْ أَمِنَ مِنَ الخوفِ، ونالَ أفضلَ الثَّوابِ، وفي ذلكَ استثارةٌ لرياحِ الإقبالِ على الإيمانِ والعملِ الصّالحِ. وتحتمل أن تكون الواو استئنافيَّةً[2]، أو حاليَّة[3]، أي: هم يُحصّلون الخيرَ في الآخرة حالَ كونِهم آمنين منَ الفَزَعِ الذي يَعمُّ الخلائق كلَّها.

توجيهُ الانتقالِ مِنَ المفردِ إلى الجمعِ:

مراعاةُ اللّفظِ والمعنى ميزانُ النَّظمِ بمعيارِ السّياق

الضَّميرُ في ﴿فَلَهُۥ﴾ يعودُ على ﴿مَن﴾؛ مراعاةً للَّفظِ الإفراديِّ فيها، والضَّميرُ في ﴿وَهُم﴾ يعودُ عليها أيضًا؛ مراعاةً للمعنى الجمعيِّ فيها؛ لأنَّها مِنْ ألفاظِ العموم[4]، ولو روعيَ اللَّفظُ دونَ المعنى لقيلَ: (وهو مِنْ فَزَعٍ يومئذٍ آمِنٌ)، ولو روعيَ المعنى دون اللفظ لقيلَ: (فلهُم خَيْرٌ منها)، ولكنْ جرَتْ عادةُ القرآنِ الكريمِ بمراعاتِهما معًا، وجرَتِ العادةُ أيضًا بمراعاةِ اللَّفظِ أوَّلًا، والمعنى ثانيًا؛ إذِ اللَّفظُ في الخارجِ قبلَ المعنى، وكذا الواحدُ قبلَ الجمعِ، ولو عُكِسَ لجازَ[5]، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ مراعاةَ المعنى ينبني عليها جمعُ ﴿ءَامِنُونَ﴾، وبهِ يكونُ تلاؤمُ الفواصلِ، وذلك إنّما يكون بميزان النَّظم ومعياريَّة المعنى السّياقيّ.

دلالةُ تعديةِ الأمنِ بـ ﴿مِّن﴾:

تضمينُ الأمنِ معنى النَّجاةِ

فعلُ (أَمِنَ) ومشتقّاتِه يُعدَّى بالجارِّ، كما في قولِهِ تعالى هنا:

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 274.
(2) دعّاس، إعراب القرآن: 2/ 418.
(3) صافي، الجدول: 20/ 215.
(4) اطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 346.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/ 417.

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، ويُعدَّى بنفسِه، كما في قولِه تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: 99][1]، وتعديتُهُ بالجارِّ لتضمُّنِه معنى النَّجاةِ[2]، أي: وهُم مِنْ فَزَعٍ يومئذٍ آمنونَ ناجونَ، فأفادَ التَّضمينُ بيانَ اقترانِ أَمْنِهم بالنَّجاةِ، وأسلوبُ التَّضمينِ مِنْ أساليبِ الإيجازِ في القرآنِ الكريمِ، وفيهِ تكثيرٌ للمعاني معَ قلَّةِ الألفاظِ.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿فَزَعٍ﴾:

نفيُ الفزعِ يستلزم نفيَ ما دونَه من أنواعِ الخوف

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردة الفَزَعِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنْ شدَّةِ الخوفِ المصحوبِ بالنِّفارِ والانقباضِ، والقلقِ والاضطرابِ الشَّديدين، وهو أنسبُ بمقامِ بيانِ العاقبةِ الحسنةِ للمُحسِنِ؛ إذ يكونُ آمنًا مُطمئنًّا معَ شدَّةِ وقْعِ الأهوالِ على القلوبِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ والعملَ الصالحَ سببُ الأمانِ والنَّجاةِ، وأنَّ عبادَ اللهِ الصّالحينَ لا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ، فيا لَخسارةَ مَنْ رَغِبَ عن الإيمانِ، ولم يعملْ صالحًا! ووجه بلاغة هذه المفردة في كونها تنفي الفزعَ الأكبر، والخوفَ الأعظم عن قلوب المؤمنين، فدلَّ ذلك على أنَّها تنفي ما دونه من الخوف والقلق والاضطراب، فنفيُ الأعظمِ يستلزم نفيَ الأصغر.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

كلُّ فزعٍ يتصوّره المخاطَبُ فمَنفيٌّ وقوعُه عنِ المؤمنين

قرأَ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: ﴿فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ بتنوينِ ﴿فَزَعٍ﴾ وفتحِ ميم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وقرأَ نافعٌ وأبو جعفرٍ: ﴿فَزَعَ يَوْمَئِذٍ﴾ بالإضافةِ وفتحِ ميم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وقرأَ الباقونَ: ﴿فَزَعَ يَوْمِئِذٍ﴾ بالإضافةِ وكسرِ ميم ﴿يَوْمِئِذٍ﴾[3].

ومِنَ العلماءِ مَنْ فرَّقَ بينَ القراءتينِ في المعنى، فذكرَ أنَّ قراءةَ الإضافةِ تفيدُ الأمنَ مِنْ جميعِ أفزاعِ ذلكَ اليومِ، وقراءةَ التَّنوينِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 459.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 340.

تفيدُ الأمنَ مِنْ فَزَعٍ دونَ فَزَعٍ[1]. ومنهم مَنْ جعلَ القراءتينِ بمعنًى، وذلكَ يتأتَّى مِنْ وجوهٍ؛ **منها:** أنْ يُحملَ التَّنوينُ على الكثرةِ؛ لأنَّهُ مصدرٌ، والمصدرُ صالحٌ للكثرةِ، فتكونُ القراءتانَ بمعنًى[2]. **ومنها:** أنَّ المُرادَ بالفَزَعِ على قراءةِ الإضافةِ هو الفَزَعُ المذكورُ في قراءةِ التَّنوينِ - وهو الفَزَعُ الحاصلُ مِنْ مشاهدةِ العذابِ بعدَ تمامِ المحاسبةِ وظهورِ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، وهو الَّذي ذُكِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: 103] - لا جميعُ الأفزاعِ الحاصلةِ يومئذٍ، ومدارُ الإضافةِ كونُهُ أعظمَ الأفزاعِ وأكبرَها، كأنَّ ما عداهُ ليسَ بفَزَعٍ بالنِّسبةِ إليهِ[3]. **ومنها:** أنَّ المرادَ الفَزَعُ المذكورُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النّمل: 87]، فلمّا كانَ مُعيَّنًا استوى تعريفُهُ وتنكيرُهُ، فاتَّحدتِ القراءتانِ معنًى؛ لأنَّ إضافةَ المصدرِ وتنكيرَهُ سواءٌ في عدمِ إفادةِ العمومِ، فتعيَّنَ أنَّهُ فَزَعٌ واحدٌ[4].

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿فَزَعٍ﴾:

أهـوالُ القيامةِ عـلى شـدَّتـهـا، المؤمنُ آمـنٌ من فزعِها الأكبر

التَّنوينُ على قراءةِ مَنْ قرأَ: ﴿مِّن فَزَعٍ﴾ يحتملُ معنيينِ؛ **أحدُهما:** مِنْ فَزَعٍ واحدٍ، وهو خوفُ العقابِ، وأمّا ما يلحقُ الإنسانَ مِنَ الرُّعْبِ لِما يَرَى مِنْ أهوالِ القيامةِ فلا يخلو منهُ؛ لأنَّ البشريَّةَ تقتضي ذلكَ[5]، والتَّنكيرُ على هذا للوَحْدةِ[6]، أو للتَّقليلِ[7]. **والآخرُ:** مِنْ فَزَعٍ شديدٍ مُفرطِ الشِّدَّةِ، لا يكتنهُهُ الوصفُ، وهو خوفُ النّارِ[8]، والتَّنكيرُ على هذا للتَّهويلِ والتَّعظيمِ[9].

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 245، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 179.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 245، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 179.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 305.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 575.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 598.
(7) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 60.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388.
(9) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 11/ 598، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 24/ 575.

بلاغةُ التّعريف بالإضافةِ:

كثرةُ التَّقديرات مع الإيجاز مفصحٌ عن سعةِ الدّلالات

في قوله تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾، لفظُ (يَوْمَ) مُعَرَّفٌ بالإضافةِ إلَى (إذْ)، و(إذْ) مُضافَةٌ إلَى جُمْلَتِها المُعَوَّضِ عَنْها تَنْوينُ العِوَضِ، والتَّقْديرُ: مِنْ فَزَعِ يَوْمَ إذْ يَأْتونَ رَبَّهُمْ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّقديرُ: يومَ إذ تَرَى الجبالَ[2]، أو: يومَ إذ وقعَتْ هذهِ الأهوالُ[3]، أو: يومَ إذ يُنفَخُ في الصّورِ[4]، والأحسنُ أنْ تُقدَّرَ: يومَ إذ جاءَ بالحسنةِ؛ لقُرْبِ ما قُدِّرَ منهُ، وأيًّا ما كانَ التَّقديرُ فالكلامُ مِنْ قبيلِ الإيجازِ بحذفِ جملةٍ، والدّاعي إلى الحذفِ في مِثلِهِ الاختصارُ والتَّخفيفُ؛ لكثرةِ دَوَرانِ مِثلِ هذهِ الظُّروفِ على الألسنةِ.

غرضُ تقديمِ ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾:

رجاءُ المؤمنِ يومَ القيامةِ في حصولِ الأمنِ وتحقيقِ النَّجاةِ

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرفٌ منصوبٌ بقولِهِ تعالى: ﴿ءَامِنُونَ﴾[5]، أو صفةٌ لـ ﴿فَزَعٍ﴾ بتقديرِ: كائنٍ في ذلكَ الوقتِ[6]، و﴿مِّن فَزَعٍ﴾ يتعلَّقُ بقولِهِ: ﴿ءَامِنُونَ﴾[7]، وتقديمُ ﴿مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ على ﴿ءَامِنُونَ﴾ معَ أنَّ أصلَهما التَّأخيرُ عن عاملِهما؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ[8]، وهو كونُ الفَزَعِ الَّذي يأمَنُ منهُ المُحسِنُ حاصلًا يومَ القيامةِ الَّذي يجعلُ الوِلْدانَ شيبًا، وتعجيلِ المَسَرَّةِ بثِمارِ المجيءِ بالحسنةِ، وفي التَّأخيرِ أيضًا؛ مراعاةٌ لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ[9]. وإنَّما لم يُقدَّما على المسندِ إليهِ، فلم يُقَلْ: (ومِنْ فَزَعٍ يومئذٍ هم آمِنونَ)؛ للمسارعةِ إلى بيانِ أنَّ المُحسِنينَ هم الآمِنونَ دونَ غيرِهم، ففيه اختصاصُهم بنفي الفَزَعِ عنهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 646، واطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 346.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 226.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 305.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 246.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 459.
(7) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 246.
(8) اطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 346.
(9) الخفاجيّ، عناية القاضيّ: 7/ 60، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 459.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

عَراقةُ المُحسِنينَ في الأمنِ منَ المُذْلَهمّات

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ءَامِنُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ المُحسِنينَ راسخونَ في الأمنِ يومَ القيامةِ، عَريقونَ فيهِ، وهو بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ الثّابتةِ الَّتي لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ، وهؤلاءِ هم المُستَثْنَون من قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النّمل: 87]، وهم الَّذينَ كانوا أهلَ الحسناتِ، أي: تمحَّضوا لها، أو غلبَتْ على سيِّئاتِهم غلَبةً عظيمةً، بحيثُ كانَتْ سيِّئاتُهم مِنَ النَّوعِ المغفورِ بالحسناتِ، أو بالتَّوبةِ وردِّ المظالمِ[1].

بلاغةُ فنِّ الطِّباقِ:

فزعُ الثَّقلين أمنُ المُحسِنين

في الجمعِ بينَ لفظي الفَزَعِ والأمنِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ فنٌّ بديعيٌّ، وهو الطِّباقُ، وهو مِنَ المُحسِّناتِ المعنويَّةِ، وهو هنا يُري القارئَ صورتينِ متقابلتينِ؛ إحداهما تفيضُ بفَزَعٍ عظيمٍ هائلٍ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، قد أخذَ بمجامعِ قلوبِ النّاسِ وتراقي صدورِهم. والأُخرى فيها أمنٌ راسخٌ مُطمئِنٌّ يَعْمُرُ قلوبَ المُحسِنينَ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

أمانُ المُحسِنينَ ثابتٌ ثبوتَ الجبالِ الرَّواسي

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ كونَ المُحسِنينَ آمنينَ مِنْ فَزَعِ يومِ القيامةِ أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، لا شكَّ في ثبوتِهِ ولا ارتيابَ، ولا تغييرَ لهُ ولا تبديلَ، وذلكَ يزرعُ اليقينَ والطُّمأنينةَ في نفوسِ المُحسِنينَ، ويُهَوِّنُ عليهِم شدائدَ ذلكَ اليومِ العظيمِ، وفي الاسميَّةِ ملاءمةٌ بينَ هذهِ الجملةِ وبينَ نظيرتِها في جوابِ الشَّرطِ، وهي قولُهُ سبحانَهُ: ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.

عِلَّةُ الوصلِ وبلاغتُه:

مـذْحُ المحسنين يستبينُ ببيانِ عاقبة المسيئين

عُطِفَتْ جملةُ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ على جملةِ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾؛ لِما بينَهما مِنَ التّوسُّطِ بينَ الكمالين - أي: كمالِ الانقطاعِ وكمالِ الاتِّصالِ - معَ وجودِ جامعٍ بينَهما، أمّا التَّوسُّطُ بينَ الكمالين: فلاتِّفاقِ الجُملتين في كونِهما خبريَّتين لفظًا ومعنًى، وأمّا الجامعُ: فهو التَّضادُّ بينَ مضمونِ الجملتين؛ فإحداهما: بيانٌ لجزاءِ المُحسِنِ، والأخرى: بيانٌ لجزاءِ المُسيءِ، وذلكَ جارٍ على عادةِ القرآنِ بذِكْرِ التَّرهيبِ بعدَ التَّرغيبِ، وعكسِهِ، والتَّضادُّ عنوانٌ جامعٌ يجمعُ بينَ الشَّيئين؛ لأنَّ الضِّدَّ أقربُ خُطورًا بالبالِ معَ الضِّدِّ.

فائدةُ استعمالِ (مَنْ) الشَّرطيّة:

بـيـانُ سببِ العقابِ عدلٌ وتحذير

الظّاهرُ أنَّ (مَنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ شرطيَّةٌ، فتفيدُ أنَّ المجيءَ بالسَّيِّئةِ سببٌ لكبِّ وجوهِ المُسيئينَ في النّارِ، وفي ذلكَ زَجْرٌ لهُم، وحثٌّ لهُم على الإقلاعِ عمّا هم عليهِ مِنَ الكفرِ والمعاصي؛ لئلّا يُلاقوا هذا المصيرَ الأليمَ. ويحتملُ أنْ تكونَ (مَنْ) موصولةً[1]، والموصولُ فيهِ رائحةُ الشَّرطِ.

معنى تعريفِ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

صاحبُ السَّيِّئةِ الكُبرى مشركٌ باللهِ مُسرِفٌ على نفسِهِ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ السَّيِّئةِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ للجنسِ الشّاملِ للكفرِ وغيرِهِ مِنَ المعاصي[2]، ويُحمَلُ الجنسُ في المقامِ الخَطابيِّ على مَنْ كانَتْ حالتُهُ مُتمحِّضةً للسَّيِّئاتِ، أو كانتِ السَّيِّئاتُ غالبةً عليهِ[3]، أو يقالُ: عُصاةُ المؤمنينَ داخلونَ في الشِّقِّ الثّاني بالنَّظرِ إلى أوَّلِ حالِهم، وفي الشِّقِّ الأوَّلِ باعتبارِ الانتهاءِ؛ لأنَّهم جمعوا بين المجيءِ بالحسنةِ - وهي الإيمانُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 458.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 52.

- والسَّيِّئةِ - وهي المعاصي -، أو حالُهم مسكوتٌ عنها كما هو في أكثرِ المواضعِ[1].

وجوِّزَ أنْ يُرادَ بالسَّيِّئةِ أقبحُ السَّيِّئاتِ وأشنعُها، وهو الشِّركُ[2]، ووجهُ التَّخصيصِ قولُهُ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾، فهذا الجزاءُ لا يكونُ إلّا بمثلِ سيِّئةِ الشِّركِ[3]، ولو أُريدَ العمومُ لكانَ الظّاهرُ التَّنكيرَ[4].

براعةُ التَّعبيرِ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾:

مآلُ السَّيِّئةِ هَمٌّ في الدُّنيا وغَمٌّ لصاحبِها في الآخرةِ

السَّيِّئةُ في الأصلِ: الفَعْلةُ القبيحةُ[5]، وهي صفةٌ مُشبَّهةٌ مِنْ (ساءَهُ يَسوؤُهُ)، إذا فعلَ بهِ ما يكرهُهُ، نقيضُ (سرَّهُ)[6]، والسّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الأُخرويَّةِ والدُّنيويَّةِ[7]، وقد عُبِّرَ بالسَّيِّئةِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الشِّركَ وغيرَهُ مِنَ المعاصي ممّا يَسوءُ صاحبَهُ، ويُلحِقُ بهِ الأذى والغَمَّ يومَ القيامةِ؛ إذ يجعلُهُ عُرْضةً لغضبِ اللهِ وسَخَطِهِ، وفي ذلكَ مُلاءَمةٌ لمقامِ الوعيدِ، والحثِّ على هَجْرِ الشِّركِ والآثامِ، وتنبيهٌ على سببِ تسميةِ السّيِّئةِ بواقعِها في الدُّنيا، ومآلِها على صاحبِها في الآخرةِ.

بلاغةُ فنِّ الطِّباقِ:

عندَ اختلافِ القلوبِ تتنافرُ الطُّرقُ ويتباين المسير

في الجمعِ بينَ الحسنةِ والسَّيِّئةِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ وقولِهِ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ رِعايةٌ للطِّباقِ بينَهما، وهو مِنَ المُحسِّناتِ المعنويَّةِ، وبلاغتُهُ هنا تكمنُ في أنَّ الكلامَ يرسُمُ أمامَ القارئِ طريقينِ متقابلينِ، أحدُهما يسيرُ فيهِ المُحسِنُ، وعاقبتُهُ الثَّوابُ الجزيلُ والأمنُ مِنَ الأهوالِ والأفزاعِ، والآخرُ يسيرُ فيهِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 459.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 245.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 179.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 60.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سوء).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سوء).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سوء).

المُسيءُ، وعاقبتُهُ الكَبُّ في النّارِ معَ الصَّغارِ والذُّلِّ، والعاقلُ الفَطِنُ إذا تأمَّلَ في العاقبتينِ يختارُ لنفسِهِ ما فيهِ نَجاتُهُ.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الكَبُّ في النّارِ جزاءُ المجيءِ بالسَّيِّئةِ

الفاءُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ فاءُ الجوابِ، وهي رابطةٌ لجملةِ جوابِ الشَّرطِ بما قبلَها، وفائدتُها: تقويةُ السَّببيَّةِ بينَهما، وتأكيدُ ترتُّبِ الكَبِّ في النّارِ على المجيءِ بالسَّيِّئةِ ترتُّبًا سريعًا لا انفكاكَ فيهِ ولا تَوانيَ. وإنْ كانَتْ (مَنْ) موصولةً فالفاءُ لشَبَهِ الموصولِ بالشَّرطِ. ويحتملُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ عطفًا على جوابٍ محذوفٍ، والتَّقديرُ: لم يُعْذَروا، أو انقطعَتْ حُجَّتُهم[1]، أو (فله عقوبتها)؛ لتصِحَّ المقابلةُ مع الجملةِ السّابقةِ، وتكون جملة ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ عطفًا على إثباتِ العقوبةِ بسببِ السَّيِّئاتِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الكَبِّ:

المكبوبُ على وجهِهِ ذليلٌ صاغرٌ

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بمفردةِ الكَبِّ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾، دون الإلقاءِ ونحوه؛ لِما تُشيرُ إليهِ هذهِ الكلمةُ مِنْ أنَّهم قد أُلْقوا بعُنْفٍ وشدَّةٍ[2]، حتَّى صارَتْ وجوهُهم ممّا يَلي النّارَ، فيُباشرُها الإحراقُ[3]، ولأنَّ هذهِ الكلمةَ تدلُّ على أنَّ جزاءَهم يتلاءمُ معَ جُرْمِهم في الدُّنيا؛ لأنَّ المكبوبَ منكوسٌ، وهم قد نَكَسوا أعمالَهم في الدُّنيا، وعكَسوها بعبادةِ غيرِ اللّهِ، فوضَعوا الشَّيءَ في غيرِ موضعِهِ، فعظَّموا ما حقُّهُ التَّحقيرُ، واستهانوا بأمرِ اللّهِ[4].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

كبُّهم في النّارِ واقعٌ، ما لَهُ مِنْ دافعٍ

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي

(1) الطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 347.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10861.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 226.

ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّ الخبرَ عن أمرٍ غيبيٍّ متعلِّقٍ بمجيء صاحب السَّيِّئة بها، والشَّرط ﴿وَمَن جَآءَ﴾ يتضمّن المستقبل، فهو إخبارٌ عنِ المستقبلِ باعتبارِ ما سيقع فيه، والإخبارُ عن كبِّ الوجوه في النّار مندرجٌ في هذا الخبر، وفائدته تصوير المشهد الغيبيّ كأنَّه وقع؛ ليستقرَّ ترهيبُه في النُّفوس، ويعظُمَ شأنُه في القلوب، والقرآنُ الكريمُ يَعْرِضُ كثيرًا مِنْ مشاهدِ القيامةِ في صوَرِ الماضي، وكأنَّها أحداثٌ قد وقعَتْ، وذلكَ ليُؤكِّدَ كينونتَها، ولأنَّ زمنَ الدُّنيا في حسابِ الحقِّ كأنَّهُ زمنٌ قدِ انتهَى؛ ليواجِهَ بهذا الأسلوبِ الحاسمِ دواعيَ الانصرافِ عن أمرِ القيامةِ[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ:

الكَبُّ في النّارِ عذابٌ منتَظَرٌ خاطفٌ سريعٌ

جيءَ بصيغةِ البناءِ للمفعولِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ دون بناء الفعل للفاعل؛ فلم يقل: (فكبَّ اللّه وجوهَهم)؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ الحركةِ الخاطفةِ السَّريعةِ الَّتي فَجَأَتْهم، فلم يَدْروا مِنْ أينَ أتَتْ، ثمَّ إنَّ المجهولَ في هذا الموقفِ المُخيفِ يُثيرُ خيالاتٍ كثيرةً[2]، واحتمالاتٍ مُتعدِّدةً تزيدُ الموقفَ هَوْلًا ورُعْبًا، فلأجل ذلك لم يُذكر الفاعل؛ لتسليطِ الضّوءِ على كبِّ الوجوه، معَ التَّنبيه على سُرعةِ ذلك؛ فكأنَّ فاعلَ الكبِّ ينتظرُ مجيئَهم بفارغ الصَّبر، فبِمُجرَّد المجيءِ حصلَ الكَبُّ.

توجيهُ تخصيصِ الوجوهِ بالذِّكر:

احتمالُ الكلامِ المجازَ العقليَّ واللُّغويَّ والكنايةَ

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ أنْ يكونَ معناهُ: فكُبّوا فيها على وجوهِهم منكوسينَ[3]، وعلى هذا؛ فإسنادُ الكَبِّ إلى الوجوهِ مجازٌ عقليٌّ[4]، وتخصيصُ الوجوهِ مِنْ بينِ سائرِ الأعضاءِ؛ لأنَّهُ إذا كُبَّتِ الوجوهُ فسائرُ البدنِ أدخلُ في النّارِ؛ فالوجوهُ أوَّلُ ما

(1) محمد أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 266.
(2) محمد أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 266.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 460.

يُقلَبُ إلى الأرضِ عندَ الكَبِّ[1]، ولأنَّ الوجهَ موضعُ الشَّرفِ والحواسِّ[2]، وموضعُ العِزَّةِ والشُّموخِ، واللَّهُ ﷻ يريدُ لهُم الذِّلَّةَ والمَهانةَ[3].

ويحتملُ أنْ يُرادَ بالوجوهِ أنفسُهم، عُبِّرَ بالوجهِ عن جُملةِ الإنسانِ، كما يُعبَّرُ عنها بالرَّأسِ والرَّقبةِ[4]، أي: فكُبَّتْ أنفسُهم في النّارِ[5]، وعلى هذا فالوجوهُ مجازٌ لغويٌّ مُرسَلٌ[6]، أُطلِقَ الجُزءُ وأُريدَ الكلُّ.

ويحتملُ أنْ يكونَ الكلامُ كنايةً عن طَرْحِهم في النّارِ[7]؛ لِما بينَ الكَبِّ على الوجهِ والطَّرْحِ مِنَ اللُّزومِ، واختيارُ الوجوهِ باعتبارِها أشرفَ أعضاءِ البدنِ، وهي أعزُّ ما يملكه الإنسان، وهي التي أعرض بها عن ذِكْرِ اللّه تعالى، وجادل وخاصم بها، فكان كبُّها مناسبًا لعملها، ويلزم عن كبِّها كَبُّ بقيّتِها.

سِرُّ التَّعبيرِ بالوجوهِ دونَ الأوجهِ:

كـثرةُ المُعـذَّبينَ أمـــارةُ كـثرةِ الغافلين

آثَرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ صيغة جمع الكثرة (الوجوه) في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾، ولم يُقَلْ: (أوجهُهم) وهو جمعُ قِلَّةٍ، وجمعُ الكثرةِ أنسبُ بما يدلُّ عليهِ المقامُ مِنَ التَّهديدِ والوعيدِ، والخوفِ والهَلَعِ الشَّديدَينِ؛ لأنَّهُ يدلُّ على كثرةِ المُعذَّبينَ، وأنَّهم معَ كثرتِهم يُلقَوْنَ في النّارِ بيُسْرٍ وسهولةٍ مِنْ ملائكةِ العذابِ، ولا يُغني عنهُم اجتماعُهم وكثرتُهم شيئًا، وهذا دالٌّ على كثرة الغَفلةِ في النّاس، وأنَّهم لا يستجيبون إلى أوامر الشّرع.

معنى حرفِ الظَّرفيَّة:

المُـجـرِمـونَ مُنغمِسونَ في النّارِ تُحيطهم من كلِّ مكان

جيءَ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِهِ جلَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 53.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 17/ 10861.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 169.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/ 247.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 460.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 275.

شأنُهُ: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ للتّنبيهِ على أنَّ النّارَ قد أحاطَتْ بالمُعذَّبينَ مِنْ كلِّ جانبٍ، وأنَّ لهُم منها مِهادًا، ومِنْ فوقِهم غَواشٍ تغشاهُم وتُغطّيهم، وتشتملُ عليهم اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ، فلا يبقَى جزءٌ منهُم سالمًا مِنْ حرِّها ولهيبِها وإحراقِها، ولا مَطْمَعَ لهُم في الخلاصِ منها، وفي ذلكَ مِنَ الشِّدَّةِ والهَوْلِ ما تضيقُ عنهُ العبارةُ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

المعنى العهديُّ يكتسب دلالتَه منَ الاستعمال السّياقيّ

جاءَ لفظُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ مُعرَّفًا بلامِ العهدِ؛ لأنَّ المرادَ بها نارُ جهنَّمَ، وهي معروفةٌ معهودةٌ؛ لأنَّ هذهِ السّورةَ مكّيَّةٌ[1]، وقد سبقَتْها سوَرٌ مكّيَّةٌ كثيرةٌ فيها ذكرُ النّارِ، فلا جَرَمَ أنَّ النّاسَ قد سَمِعوها وعَرَفوها، فكانَ مُقتضَى ذلكَ أنْ تَرِدَ هنا مُعرَّفةً بلامِ العهدِ؛ إشارةً إلى أنَّها النّارُ الَّتي قَرَعَ ذكرُها أسماعَهم في السّوَرِ المُتقدِّمِ نزولُها على نزولِ هذهِ السّورةِ؛ ففيه إضافةُ معنًى دلاليّ في لغةِ العربِ، اكتسب خصوصيَّتَه منَ الوحي القرآنيّ.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفظِ النّارِ دونَ جهنّم:

النّـارُ اسـمُ دار العـذابِ واسـمُ العذابِ

اختيرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ اسمُ النّارِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ؛ وهو أشهرُ أسمائِها، وأكثرُها استعمالًا، وذلك لأنَّ الكبَّ على الوجوهِ سيكون في النّار الحامية، ولو قال: (في جهنم) لأفاد الإخبار عن دخولِها، أمّا هنا فهو إخبار عن دخولِها، وشَيِّ الوجوهِ في نارِها، فالنّار ناران، النّار التي هي اسمُ دارِ العذابِ، والنّار المصطلية، وفي التّعبيرِ بهِ هنا لطيفةٌ، وهي أنَّهُ قد وقعَ في مقابلةِ النّارِ الَّتي ذُكِرَتْ في أوّلِ السّورةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 19/ 215.

وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ [النّمل: 7 - 8]، وهي نارٌ دنيويَّةٌ كانَ فيها خيرٌ عظيمٌ وتكليفٌ لموسى ﷺ بالنُّبوَّةِ، فأفادَ الكلامُ في الموضعينِ إشارةً لطيفةً، وهي أنَّ مَنْ لم ينتفعْ بالهدايةِ الَّتي اقترنَتْ بالنّارِ في فاتحةِ السّورةِ، سيُلقَى في النّارِ التي هي محلُّ الوَيْلِ والثُّبورِ والهلاكِ في آخرِ السّورةِ.

بلاغةُ الخطابِ بينَ الحذفِ والالتفاتِ:

المشركون مُعذَّبونَ في الدّنيا خطابًا وفي النّار اكتواءً

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (هل يُجْزَوْنَ إلّا ما كانوا يعملونَ)، لكن عُدِلَ إلى قولِهِ ﷻ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: إمّا على سبيلِ حكايةِ ما يقالُ لهُم عندَ الكَبِّ في النّارِ بإضمارِ القولِ، أي: يُقالُ لهُم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ الآية[1]، وهذا على جهةِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ[2] لأهلِ النّارِ وهم فيها، وما أشَدَّ أن يُقالَ للمُعَذَّبِ مثلُ هذا الخطابِ. وإمّا على سبيلِ الالتفاتِ[3] مِنَ الغَيبةِ إلى خطابِ المشركينَ الَّذينَ يسمعونَ القرآنَ[4]، ونُكْتَةُ الالتفاتِ مزيدُ التَّشديدِ والعتابِ بالخطابِ[5]، وذلك بتنزيلهم منزلةَ مَن دخل النّار، لإشعارِهم بجديّة الأمر، وأنَّه ليس بالهزل، بل هو أمرٌ جدٌّ لا ريبَ فيه ولا قلق.

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُه:

الاستفهامُ دعوةٌ للعقولِ ومهمازٌ للقلوبِ للبحثِ عن أسبابِ النَّجاة

الاستفهامُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في معنى النَّفي، بقرينةِ الاستثناءِ بـ﴿إِلَّا﴾، فيكونُ الاستفهامُ مجازيًّا لا حقيقيًّا، وأصلُ ذلكَ: أنَّهُ استفهامٌ عنِ النَّفي لقصدِ التَّقريرِ بالنَّفي، والتَّقديرُ: (لا تُجْزَوْنَ إلّا ما كنتم تعملونَ)، فلمّا اقترنَ بهِ الاستثناءُ حُذِفَ النّافي، وأُشرِبَ حرفُ الاستفهامِ معنى النَّفي؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 510، والزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 274، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 624.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 388.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 53.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 305، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 460.

اعتمادًا على القرينةِ، فصارَ مُفادُ الكلامِ نفيًا، وانسلخَتْ ﴿هَلْ﴾ عنِ الاستفهامِ، فصارَتْ مُفيدةً للنَّفيِ[1]، ووجهُ بلاغةِ الاستفهامِ أنَّه قَصْرٌ للجزاءِ على سببِ أعمالِهم، وفيه تأنيبٌ وتوبيخٌ شديدَين، واختير الاستفهامُ دون أداة النَّفي الصَّريح؛ لإشرابه معنى التّأمّل في المصير، فإنَّ المخاطَبين في الدُّنيا عندما يسمعون هذا الخطاب، تتسارع إلى أذهانهم الإجاباتُ عن هذا السُّؤال، وهو المُراد في زرع الهداية في القلوب، بعد تحريك العقول.

نُكْتَةُ بناءِ الفعل للمفعولِ:

مَـنـاطُ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ الجزاءُ لا فاعلُهُ

جيءَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعولِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لعدم تعلُّقِ الغرضِ بذكرِ الفاعلِ؛ لأنَّ المُرغِّبَ والمُرهِّبَ هو الجزاءُ نفسُهُ، لا كونُهُ مِنْ مُعيَّنٍ، وإشارةً إلى أنَّهُ يكونُ بأيسرِ أمرٍ؛ لأنَّ المعلومَ أنَّ المُجازيَ هو اللهُ لا غيرُهُ[2]، وهو سبحانَهُ سريعُ الحسابِ، وفي هذهِ الصّيغةِ أيضًا ملاءمةٌ للمبنيِّ للمفعولِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾، ففيه تسريعُ الأحداث، وتنشيطُ المدارك، لما سيكون في الآخرة.

براعةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

عـذابُ المُجرمينَ دائـمٌ لا انقطاعَ لهُ

جيءَ بفعلِ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مضارعًا؛ للتَّنبيهِ على تجدُّدِ الجزاءِ واستمرارِهِ؛ لأنَّ عذابَ النّارِ خالدٌ لا نهايةَ لهُ، وهو مُتجدِّدٌ على الكفّارِ كلَّ حينٍ، لا يُخفَّفُ عنهُم، فالمعنى: هل تُجْزَوْنَ لحظةً فلحظةً إلَّا بما كنتم تعملونَهُ في الدُّنيا، وفي ذلكَ تيئيسٌ لهُم مِنَ الخلاصِ، ومزيدُ تخويفٍ وتهويلٍ يقتضيهما مقامُ استنزالِ طائرِ كِبْرِهم وعنادِهم، وتحريكٌ للعصا معَ إزعاجٍ وتغليظٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 54.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 226.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

ذكرُ الألفاظِ لتضمينِ المعاني مقصودةٌ في النَّظم الكريم

﴿مَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ موصولةٌ، وما بعدَها صلتُها، وقد عُبِّرَ بها دونَ المصدرِ، فلم يُقَلْ: (إلَّا أعمالَكم)؛ للدّلالةِ على النُّكَتِ البلاغيَّةِ الآتيةِ الَّتي تتضمَّنُها الصِّلةُ المشتملةُ على فعلِ الكونِ الماضي الدّاخلِ على المضارعِ، ولِما في التَّعبيرِ بالموصولِ مِنَ الإيماءِ إلى عِلَّةِ الجزاءِ، ومراعاةِ تناسبِ فواصلِ الآياتِ.

نُكْتَةُ الحذفِ ودلالتُه:

الجزاءُ مِنْ جنسِ العملِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (هل تُجْزَوْنَ إلّا بما كنتم تعملونَ) بباءِ السَّببيَّةِ، لكنَّها حُذِفَتْ، فقيلَ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وأُطلِقَ على الجزاءِ المعادلِ لأعمالِهم نفسُ العملِ؛ للدّلالةِ على كمالِ العدلِ والتَّساوي بينَ ما كانوا يعملونَ، وبينَ الجزاءِ الَّذي يذوقونَ آلامَهُ في النَّارِ، مِنْ دونِ زيادةٍ على قدرِ الأعمالِ، والمعنى: هل تُجْزَوْنَ إلَّا جزاءً مُعادِلًا لِما كنتم تعملونَ[1]، وهل هي إلّا أعمالُكم توفَّى لكم؟!

دلالةُ ذِكْرِ فعلِ ﴿كُنتُمْ﴾:

حبلُ الهدايةِ ممدودٌ لمن أرادَ الحقَّ واتّبعَه

جيءَ بفعلِ الكونِ ماضيًا في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للدّلالةِ على تمكُّنِ العملِ مِنْ أصحابِه، ورُسوخِه فيهم رُسوخًا تامًّا، وأنَّهُ كانَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهم الجِبِلِّيَّةِ الَّتي لا تنفكُّ عنهُم[2]، وأُدخِلَ الماضي على المستقبلِ؛ للدّلالةِ على استمرارِ العملِ وتجدُّدِه وتكرُّرِه[3]، وأنَّهُ شأنُهم ودَيْدَنُهم مدَّةَ حياتِهم، ولو رُدّوا إلى الحياةِ بعدَ موتِهم لَعادوا لِما نُهوا عنهُ، ولذلكَ استحقّوا الكَبَّ في النّارِ والخلودَ فيها، فاللّهُ ﷻ يُحاسب العبادَ على أعمالِهم التي يُداومون عليها، وهذا من رحمة اللّه تعالى، وإرخاء حبل الهداية لمن يُريد الإقبال عليها.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 10/ 81.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارعِ:

جزاء الله تعالى يقابل أعمال العبد التي كانت في الدُّنيا

جيءَ بفعلِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مضارعًا؛ لتصويرِ ما كانوا يعملونه على الدَّوام، ويُرشِّح ذلك استعمال ﴿كُنتُمْ﴾، فالمعنى: هل تُجْزَوْنَ لحظةً فلحظةً إلَّا بما كنتم تعملونَهُ في الدُّنيا باستمرارٍ، وبدون مبالاةٍ لما سيكون عليكم في الآخرةِ منَ العذابِ الشَّديد، وفي ذلكَ مزيدُ تخويفٍ وتهويلٍ وتوبيخ وتأنيب.

غرضُ حذفِ مُتعلَّقِ الفعل:

كتابُ الكفّار يُحصي أعمالَهم ويُسجِّل جرائمَهم

حُذف متعلِّق فعل ﴿تَعْمَلُونَ﴾، فلم يقل: (تعملونَهُ) بضميرِ المفعولِ الرّاجعِ إلى الموصولِ إيجازًا؛ لشيوعِ حذفِهِ اعتمادًا على دلالةِ القرائنِ عليه، وللعموم؛ فيدخل فيه جميعُ أعمالِهم التي كانوا يعملونها في الدُّنيا، وفي هذا الإطلاقِ إشارةٌ إلى أنَّ السَّيِّئاتِ قدِ استغرقَتْ أعمالَهم أو غلبَتْ عليها، حتَّى كأنَّهم ليسَ لهُم عملٌ صالحٌ، وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لحالِهم، وتأكيدٌ لاستحقاقِهم هذا العذابَ الشَّديدَ، كما أنَّ في حذفِهِ مراعاةَ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها.

بلاغةُ القَصرِ:

عدالةُ الجزاءِ بأعمال العبادِ

القَصرُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مستفادٌ مِنْ ﴿هَلْ﴾ الدّالّة على النَّفي و﴿إِلَّا﴾، وهو قصرٌ موصوفٍ (الجزاءُ) على صفةٍ، وهي كونُهُ بإزاءِ أعمالِهم الصّادرةِ منهُم، لا يتجاوزُها إلى ما لم يَصدُرْ منهُم، فالقَصْرُ إضافيٌّ منظورٌ فيهِ إلى أنَّهُ لا يُعذَّبُ أحدٌ بذنبِ غيرِهِ[1]، إلّا ما خصَّهُ الدَّليلُ، وفي ذلكَ إقامةٌ للموازينِ القِسْطِ، فلا تُظلَمُ نَفْسٌ شيئًا.

بلاغةُ فَنِّ الاحتباكِ:

في الآيتينِ إيجازٌ بديعٌ بالحذفِ يُسمَّى الاحتباكَ، وهو أنْ يُحذفَ

(1) اطّفيّش، تفسير اطّفيّش: 7/ 347.

مِنَ الأوَّلِ ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الثّاني، ومِنَ الثّاني ما أُثبِتَ نظيرُهُ في الأوَّلِ[1]، بيانُ ذلكَ: أنَّ ذكرَ الخيريَّةِ والأمنِ أوَّلًا دليلٌ على حذفِ المِثْلِ والخوفِ ثانيًا، وذكرَ الكَبِّ في النّارِ ثانيًا دليلٌ على إكرامِ المُحسنينَ عنهُ أوَّلًا[2]، وتقديره: مَنْ جاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها وأُدخِلوا الجنَّةَ وهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنونَ ومَنْ جاءَ بالسَّيِّئَةِ فله مثلُها منَ الجَزاءِ، فَكُبَّتْ وُجوهُهُمْ في النّارِ وهم خائفون، هَلْ تُجْزَوْنَ إلّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ، ولمّا كان إثباتُ الخيريَّة هو موضعَ التَّرغيب، والكبُّ في النّار هو موضعَ التَّرهيب، آثَرَ ذكرَهما على غيرِهما؛ لقيامِ السّياق عليهما.

المُسيءُ خائفٌ ومَجْزيٌّ بالمِثْلِ، والمُحسِنُ مُكرَمٌ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّعْب والخوف والهَلَع والفَزَعُ:

الرُّعْبُ: هو الخوفُ الذي يملأُ الصَّدرَ والقلبَ، فهو أشدُّ الخَوفِ[3]، والخَوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ[4]، والهَلَعُ: الجَزَعُ وقلَّةُ الصَّبرِ، أو هو أسوأُ الجَزَعِ[5]، والفَزَعُ: انقباضٌ يعتري الإنسانَ مِنَ الشّيءِ المُخيفِ، ونِفارٌ مِنْ كلِّ شيءٍ مُخيفٍ، أو هو الخوفُ الشّديدُ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: 103][6].

الرُّعب خوفٌ مسيطرٌ، والخوف توقع المكروه، والهلع أسوأ الجزع، والفزع النّفار منَ المخوف

والنّاظرُ في هذهِ المعاني يلحظُ أنَّ بينَها تقاربًا، وأنَّ الرُّعْبَ والهَلَعَ والفَزَعَ مراتبُ عاليةٌ مِنَ الخوفِ، وأنَّ الخوفَ مبنيٌّ على توقُّعِ مكروهٍ، والبواقي مبنيَّةٌ على مفاجأةِ شيءٍ مُخيفٍ؛ كهُجومِ غارةٍ وما أشبهَ ذلكَ[7].

(1) السّيوطيّ، معترك الأقران: 1/ 243.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 227.
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (رعب).
(4) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (هلع).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 404.
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 404.

وقد عُبِّرَ بالفَزَعِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ لِما يدلُّ عليهِ مِنْ شدَّةِ الخوفِ المصحوبِ بالنِّفارِ والانقباضِ، والقلقِ والاضطرابِ، وهو أنسبُ بمقامِ بيانِ العاقبةِ الحسنةِ للمُحسِنِ؛ إذ يكونُ آمِنًا مُطمئِنًّا معَ شدَّةِ وقْعِ الأهوالِ على القلوبِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ الإيمانَ والعملَ الصالحَ سببُ الأمانِ والنَّجاةِ، وأنَّ عبادَ اللهِ الصّالحينَ لا يَحْزُنُهم الفَزَعُ الأكبرُ، فيا لَخسارةَ مَنْ رَغِبَ عنِ الإيمانِ، ولم يعملْ صالحًا!

الأمن والطُّمأنينة والسَّكينة:

الأمنُ: سكونُ القلبِ[1]، والطُّمأنينةُ: السُّكونُ بعدَ الانزعاجِ[2]، والسَّكينةُ: زوالُ الرُّعْبِ[3]، ويُلحَظُ أنَّ كلًّا مِنَ الطُّمأنينةِ والسَّكينةِ مسبوقٌ بانزعاجٍ وخَوفٍ، وأمّا الأمنُ فهو سكونُ القلبِ، ولا يُشترَطُ فيهِ أنْ يكونَ مسبوقًا بخوفٍ، ولذلكَ عُبِّرَ بهِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾؛ لأنَّهُ أبلغُ في هذا المقامِ؛ لأنَّهُ يُفيدُ أنَّ أمنَ المُحسِنينَ غيرُ مسبوقٍ بخوفٍ معَ شدَّةِ أهوالِ يومِ القيامةِ، وذلكَ أعظمُ في المِنَّةِ وحُسْنِ الثَّوابِ.

الأمنُ سكونُ القلبِ، والطُّمأنينةُ سكونٌ بعدَ انزعاجٍ، والسَّكينةُ زوالُ الرُّعْبِ

العمل والفعل:

العملُ: هو المثابرةُ على الشَّيءِ، لا الإتيانُ بهِ مرَّةً أو بسرعةٍ، ومثالُهُ قولُهُ تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ [سبأ: 13]. وأمّا الفعلُ: فهو الإتيانُ بالشَّيءِ بسُرعةٍ مِنْ غيرِ تَوانٍ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤﴾ [المؤمنون: 4][4].

العملُ يصدرُ بقصدٍ عن عاقلٍ، والفعلُ أعمُّ منه

والأصلُ في العملِ أنْ يكونَ بقصدٍ، والفعلُ عامٌّ، يَصدُرُ بقصدٍ أو بغيرِ قصدٍ، ويَصدُرُ عنِ العاقلِ وغيرِ العاقلِ، وقلَّما يُنسَبُ العملُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(2) الرّاغب، المفردات: (طمن).
(3) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(4) النّزهيّ، الفروق اللّغويّة، ص: 55.

إلى حيوانٍ، وبناءً على ذلكَ يكونُ الفعلُ أعمَّ منَ العملِ[1]. وقد اختيرَ لفظُ العملِ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لدلالتِهِ على أنَّ المُعذَّبينَ كانوا مُثابرينَ على عملِ السَّيِّئاتِ، وأنَّهم كانوا يعملونَها بقصدٍ منهُم صادرٍ عن حبٍّ لها، ووُلوعٍ بها.

(1) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة: 10/ 252.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»